فى الأدب الروسى :

أشيك كريب

[قصة تركية للشاعر ليرمونتوف]

كان فى مدينة «تفليس» رجل تركى وهبه الله بسطة فى الرزق ووفرة فى المال، وأعطاه ما هو أثمن من الذهب والفضة ... بنيته الوحيدة الجميلة « ماجول مجيرى » ، وكانت هذه الفتاة أجمل فتيات تفليس ، كما أن الملائكة أجمل من بالسماء .

وكان فى «تفليس» أيضاً رجل فقير يدعى « أشيك كريب » ليس له من المواهب سوى قلبه النابض وصوته العذب ، فكان يذهب إلى حفلات الزواج فيدخل على الأغنياء السرور بحسن ترقيمه على آلته الموسيقية وغنائه الشجى ؛ يشيد بذكر أبطال تركستان القدماء وما قاموا به من ضروب الشجاعة والفروسية ، فحدث ذات يوم أن « أشيك كريب » كان يغنى فى حفلة عرس ، فرأى الفتاة « ماجول مجيرى » ورآته ، فجذب كل منهما الآخر نحوه ، ووقعا صريعى غرام بهيم كل منهما بالآخر .

وطبيعى أن لا يكون عند الرجل الفقير أمل فى الاقتران بمن أحب ، فوقع فريسة الهموم والأحزان ، وبينما هو راقد ذات مرة فى حديقة تحت أظلال الكروم يغط فى نوم عميق إذ مرت به « ماجول مجيرى » بصحبة صديقات لها ، فأبصرته إحداهن فذهبت إليه وقالت له وهى تغنى وتضحك :

— أيها الرجل المجنون ! لماذا تنام تحت الكروم وغزالك يمر بك ؟

فاستيقظ الرجل على صوتها، وأسرع الفتيات فى الهروب من أمامه ، فأنبت «ماجول مجيرى» صديقتها على غنائها لرجل لا تعرفه ، فقالت الفتاة :

— لو كنت تعلمين لمن كنت أغنى، لقدمت إلى أسمى عبارات الشكر ؛ إنه «أشيك كريب» .

— إذن فلنذهب إليه .

ورأت « ماجول مجيرى » آثار الكآبة على وجهه ، فحاولت أن تخفف عنه، وسألته عن آله فقال :

— وكيف لا أحزن ؟ وأنا أحبك ، وليس لدى أمل فى الاقتران بك ؟

— اذهب إلى والدى وأطلب يدى منه ، وسيحتفل والدى بزواجنا بأموالك ، وسيعطينى من الهدايا والأموال ما يكفينا للعيش معاً سعداء .

— هذا جميل ! وإذا فرض أن أباك « آجا » لم يحقد عليك ، فمن يضمن لى أنك سوف لا تبتعدين عنى لإملاق ولأنى مدين لك بكل شىء .

كلا ياعزيزتى « ماجول » ! ! لقد وهبت نفسى لك ، وأقسمت أن أنجول سبع سنوات ، فإما حصلت على الثروة والغنى ، أو هلكت فى إحدى المفاوز الموحشة ، فإذا كنت تصممين مثلى على الانتظار هذه المدة فستكونين لى .

فوافقته الفتاة وزادت على ذلك : أنه اذا لم يحضر فى اليوم المعين فستكون فى حل من وعدها ، وستتزوج « خورشيد بك » الذى خطبها من زمن .

* * *

عاد « أشيك كريب » إلى أمه يسألها الدعاء له بالتوفيق فى رحلته ، وقبل أخته الصغيرة ، ثم حمل حقيبته على ظهره ، وأمسك عصاً غليظة ، ثم خرج من « تفليس » فلحق به فارس على صهوة جواده ، فالتفت إليه أشيك كريب ، فإذا به خورشيد بك يقول له : أتمنى لك حظاً سعيداً فى رحلتك ، وسأرافقك فى بعض الطريق لأنى ذاهب .

فامتعض « أشيك » لوجود مثل هذا الرفيق معه ، ولكن لم يكن بد من الواقع ، فسارا مدة طويلة حتى اعترضهما نهر ليس عليه قنطرة أو قارب ، فقال خورشيد بك لرفيقه : تقدم أمامى واعبر النهر وسألحق بك .

فخلع أشيك كريب ملابسه وقذف بنفسه فى الماء حتى بلغ الشاطىء الآخر ، ونظر لصديقه فإذا خورشيد بك — لسوء الحظ — يأخذ الملابس ويقفل راجعاً إلى « تفليس » بسرعة غريبة ، حتى لم يظهر منه وسط الحقول إلا عاصفة من التراب المنبعث من ركض جواده ، فلما بلغ تفليس ذهب إلى أم أشيك كريب يحمل ملابس ابنها ويقول : لقد غرق ولدك فى نهر عميق ، وها هى ذى ملابسه .

فحزنت الأم وسقطت على ملابس ابنها تذرف بدل العبرات دماً حارة ، حزناً على فلذة كبدها ، ثم حملت الملابس إلى خطيبة ابنها « ماجول مجيرى » وقالت لها :

— غرق ابنى ، وحمل خورشيد بك ملابسه إلى ، فأنت الآن فى حل من وعدك ، فتبسمت « ماجول » وقالت :

— لا تصدقى ذلك ، إن هذا كله كذب من خورشيد بك ، وأنا لن أتزوج مخلوقاً ما قبل مضى السبع السنوات . ثم أمسكت بآلتها الموسيقية ، وطفقت تغنى أناشيد أشيك كريب .

كان أشيك كريب إذ ذاك عارياً وبدون حذاء، وقد وصل إلى قرية استطعم أهلها، فأحضروا له ما يريد من مأكل وملبس، فأخذ يغنى لهم أغانى عذبة شجية، وتنقل من قرية إلى قرية، ومن مدينة إلى مدينة حتى اشتهر فى كل مكان؛ وأخيراً بلغ مدينة « خالاف » فذهب إلى مقهى يغنى به، وكان فى خالاف إذ ذاك رجل غنى كلف بالغناء محب للمغنين، فكان يذهب إليه عدد من هؤلاء المغنين يعرضون فنهم عليه، فلم يعجبه أحد، وأجهد خدمه فى البحث له عن مغنين فى كل ركن من أركان المدينة، وبينما هم يطوفون فى أرجائها إذ سمعوا صوتاً جميلا فى المقهى، فأسرعوا إلى « أشيك كريب » قائلين :

— لتذهب معنا إلى الباشا العظيم، وإلا أرغمناك قهراً على الذهاب.

— إنى رجل مهاجر من مدينة تفليس، وإنى حر فى ذهابى أنى شئت، وإذا لم أرد الذهاب إلى مكان ما، فلا يرغمنى أحد. إننى أغنى متى أشاء، أما ذلك الباشا فليس بسيدى حتى أصدع لأمره.

فلم يحفلوا بقوله، بل حملوه إلى الباشا، فأمر أن يغنى فأنشد مدائح فى حبيبته « ماجول جيرى » فأعجب الباشا بغنائه وأمره أن يبقى معه، وأغدق عليه كثيراً من الذهب والفضة ووهبه خلعاً سنية؛ فعاش أشيك كريب سعيداً جذلا، وأثرى ثراء فاحشاً.

ولا أدرى إذا كان قد نسى حبيبته « ماجول » أم ما زال يذكرها، لأن السنين السبع كادت تمضى، ولم يظهر « أشيك » أى استعداد للرحيل إليها؛ وابتدأت « ماجول جيرى » تقنط من حضوره، حتى إنها ما كادت تسمع أن أحد التجار فى تفليس سيسافر ومعه أربعون جملا وثمانون عبداً حتى استدعت التاجر إليها وأعطته طبقاً من ذهب، وقالت له :

— خذ هذا الطبق واعرضه فى كل مدينة تحط بها رحالك، ومن يثبت لك أن هذا طبقه أعطه له، وسأكافئك بنقله ذهباً.

فرحل التاجر وعرض الطبق فى كل بلد حل به، فلم يتقدم إليه أحد يدعى ملكية الطبق الذهبى، حتى باع الرجل معظم تجارته وذهب بالباقى إلى « خالاف »، وفيها عرض الطبق أيضاً، فسمع به أشيك كريب فأسرع إلى التاجر ليراه فأمسكه وقال : هذا طبقى ! !

— نعم، صحيح ما تقول، فإنى عرفتك يا أشيك كريب، أسرع إلى تفليس، فإن ماجول جيرى أمرتنى أن أخبرك أن السبع سنين كادت تنقضى، وأنها إذا لم تحضر إليها فى الوقت المحدد ستتزوج بغيرك.

فأسقط فى يد أشيك، وأسند رأسه بكفيه، إذ لم يبق على الميعاد سوى ثلاثة أيام؛ ومع ذلك فقد ركب جواده وأخذ معه حقيبة مكدسة بالأموال، وسار فى طريقه يحث

جواده حتى أجهده ، وسقط صريعاً ، على تلال أرزينجيان التى بين أرزيجان وأرضروم .

فاذا يعمل ذلك المسكين ، وتفليس على مسيرة شهر ، وليس لديه من الوقت إلا يومان ؟... وأخيراً رفع رأسه إلى السماء وقال : أيها الإله القدير ، ليس لى من أمل فى الحياة إن لم تغثنى برحمتك .

ويئس من الوصول إلى بلدته ، وكاد أن يقذف بنفسه من أعلى قمة تل مشرف ، ولكنه أبصر فارساً على جواد أبيض ، وسمع صوته يقول :

— أيها الشاب ! ما الذى عولت عليه ؟

— أريد أن أموت .

— إن كنت تريد الموت فانزل لأقتلك .

ولا أدرى كيف استطاع «أشيك كريب» أن ينزل من أعلى التل فى تلك الناحية الصخرية الفجائية الانحدار ، على أنه حين كان بين يدى الفارس سمعه يقول بصوت مرتفع اتبعنى ، فقال له :

— وكيف لى أن أتبعك وجوادك يسرع كأنه الريح ، وأنا مثقل بحمل كبير ؟

— علق حملك بسرج جوادى واتبعنى .

فأسرع أشيك كريب فى الجرى جهد طاقته ، ولكنه لم يستطع اللحاق بالفارس ، فقال هذا له : لماذا تبطىء ؟

— وكيف لى أن ألحق بك وجوادك أسرع من لمح البصر ، وأنا رجل متعب ؟

— إذن اركب خلفى وأصدقنى القول ... إلى أين تريد الذهاب ؟

— حيثما لو استطعت اليوم الوصول إلى أرضروم .

— أغمض عينيك ..... انظر الآن .

فنظر أشيك كريب حوله ، فاذا مدائن أرضروم وأسوارها البيضاء تتجلى أمام عينيه . فقال للفارس : سيدى ! سامحنى فقد أخطأت ، لقد كنت أريد أن أقول إنه لابد لى من الذهاب إلى كارز .

— لقد أمرتك أن تقول الصدق ، وحذرتك الكذب ، ولكنى سأعفو عنك هذه المرة ... أغمض عينيك ... افتحهما الآن .

فلم يصدق أشيك كريب نفسه ، حينما رأى « كارز » أمامه ، فخر جاثياً على ركبتيه أمام الفارس يقول :

ـ إننى مذنب يا سيدى ... عبدك أشيك كريب يستميحك عذراً لكذبه ، ولكنك تعلم أن الرجل الذى عزم على الكذب فى الصباح يكذب طول يومه ، وفى الحقيقة أننى أريد الذهاب إلى « تفليس » .

فقال الفارس غاضباً : إنك لن تصدق ، ولن يعتمد عليك ، ولكنى سأعفو عنك . . . أغمض عينيك . . . انظر الآن .

فصاح أشيك كريب فرحاً ، لأنه كان على أبواب تفليس ، فشكر الفارس شكراً جزيلا ، وأخذ حقيبته من المرج ثم قال للفارس :

— إن منتك لعظيمة ياسيدى ، فهل لك أن تزيدنى مكرمة أخرى ؟ إننى إذا حدثت أحداً عن رحلتى من أرزنجان إلى تفليس فى يوم واحد ، فلن يصدقنى ، فهل أجد عندك دليلا يؤيد قولى ؟

فتبسم الفارس وقال : خذ قطعة من الأرض تحت حافر جوادى وضعها على صدرك ، فإن لم يؤمن أحد بقولك دعه يحضر لك امرأة ضريرة فقدت بصرها منذ سبع سنين ، وامسح عينيها بقطعة الأرض فإنها تبصر فى الحال . فأخذ أشيك جزءاً من الأرض ، ولكنه قبل أن يرفع رأسه لم يجد الفارس ولم ير جواده ، فاعتقد فى نفسه أن الفارس لم يكن غير «الخضر الياس»

* * *

لم يستطع أشيك كريب أن يجد منزله إلا متأخراً جداً ، فطرق الباب بيد مرتعشة وهو يقول : أماه ! أماه ! ! افتحى الباب ، فإنى ضيف الله . . . أكاد أموت برداً وجوعاً . . . أتضرع إليك بحق ابنك السائح أن ترحمنى وتدعينى أدخل .

فأجابته المرأة بصوت خافت : عندك منازل الأغنياء والأقوياء ، وفى المدينة حفلات زواج اذهب إليها لتمضى ليلتك فى أحسن حال .

— أماه . . . إنى لاأعرف أحداً هنا ، أتضرع إليك أن تجيبى طلبى بحق ابنك السائح ، دعينى أدخل .

فقالت أخته لأمها : سأذهب وأفتح له الباب .

فقالت لها أمها : وأنت أيتها الخائبة ، يسرك أن تستقبلى الشبان فى المنزل وتلهين معهم منذ فقد بصرى من كثرة بكائى على ولدى .

فلم تأبه الفتاة بقولها ، وفتحت الباب فدخل «أشيك كريب» وقرأ السلام وجلس ينظر حوله فرأى آلة الموسيقية معلقة وقد علاها التراب ، فقال لأمه : ماهذا الذى علق على الحائط ؟

— إنك ضيف غريب ، ألم يكفك أننا سنعطيك كسرة خبز ، وفى الصباح تقول لك مع السلامة ؟

— إننى أخبرتك أنك أمى ، وهذه شقيقتى ، فأرجوك أن تخبرينى عما علق على الحائط .

فلم تصدق الأم ، وقالت غاضبة : إنها آلة موسيقية .

مامعنى آلة موسيقية ؟

— آلة توقع عليها النغمات ويغنى عليها .

فطلب أشيك كريب من أخته أن تحضر الآلة له ، فقالت الأم :

— إن ذلك من المستحيل ، فإن هذه آلة ابنى العاثر الحظ ، وقد مضى سبع سنوات وهى معلقة لم يمسسها بشر .

ولكن أخته قامت وأحضرت الآلة الموسيقية له ، فرفع رأسه إلى السماء ودعا ربه قائلاً : يا إلهى العظيم ! إذا نلت مأتمنى فسأغنى على آلتى الموسيقية ذات السبع أوتار ، كما كنت أغنى سابقاً . ثم جانس بين أصوات الأوتار وطفق يغنى :

« إنى متجول مسكين وكلامى لاقيمة له .

« ولكن « الخضر إلياس » ساعدنى فى نزول منحدر صخرى ،

« مع أنى متجول مسكين وكلامى لاقيمة له » .

فتنهدت أمه وسألته عن اسمه فقال لها : اسمى راشد .

— اسمع يا راشد ! إنك قطعت نياط قلبى بكلماتك هذه ، وقد حلمت هذه الليلة أن شعر رأسى قد ابيض ، ومضى سبع سنوات منذ فقدت بصرى من بكائى ، فخبرنى : إن صوتك يشبه صوته تماماً ، فمتى يعود ابنى إلى ؟

وكررت سؤالها مرتين وهى مجهشة بالبكاء ، فأخذ يدلل لها أنه ابنها ، ولكنها لم تصدق قوله ، وأخيراً قال : اسمحى لى يأماه أن آخذ آلتى الموسيقية وأذهب ، فقد سمعت عن حفلة عرس بجواركم ، وسترشدنى أختى عن الطريق ، وسألعب على الأوتار وأغنى ، وما سينالنى من عطاء سأقسمه بيننا .

— إنى لا أسمح لك بذلك ، فإن تلك الآلة لم تخرج من المنزل مدة غياب ولدى .

فأقسم لها أنه سيرد الآلة سليمة كما هى ، وأنه مستعد أن يضحى بكل ما يملك إذا قطع وترمن الأوتار ، فتلمست العجوز حقيبته ، ولما أيقنت أنها مكدسة بالأموال أذنت له بالذهاب ، وقادته أخته إلى منزل رجل من السراة حيث أقيمت حفلة عرس ، ووقفت الفتاة بجوار الباب ترى ماسيحدث .

* * *

فى هذا المنزل كانت تقيم « ماجول حيرى » ، وفى هذه الليلة كانت ستزف إلى خورشيد بك ، الذى جلس بين أقربائه وأحبابه يقصفون ويمرحون ، وأما العروس فكانت خلف ستار بين صديقات لها ، وقد أمسكت بإحدى يديها كوباً من السم ، وبالأخرى قبضت على خنجر حاد ، وأقسمت أن تموت قبل أن تنام فى مخدع « خورشيد بك » . وبينما هى كذلك إذ سمعت من خلف الستار

صوت رجل غريب دخل الحفل وهو يقول : السلام عليكم . . . أنتم الآن فى سرور وحبور، فهل تسمحون لمتجول مسكين أن يجالسكم ويشنف آذانكم بغنائه ؟

فقال «خورشيد باك» : ولم لا . . . ليدخل من شاء من المغنين والراقصين ، فإنا فى حفلة عروس، غننا أيها الرجل وسأعطيك حفنة من ذهب ،ثم سأله خورشيد عن اسمه فقال :أدعى «ستعرف حالا»،فضحك خورشيدباك وقال: ما هذا الاسم ؟ هذه أول مرة أسمع فيها اسماً كهذا.

ـعندما وضعتنى أمى جاء كثير من جاراتها يسألنها عما إذا كان المولود ذكراً أم أنثى ،فكانت تجيبهم: «ستعرفون حالاً »، ولذا سميت بهذا الاسم . ثم أخذ « أشيك» آلته الموسيقية وابتدأ يغنى:

« فى مدينة خالاف شربت خمراً ،

«ولكن وهبنى الله أجنحة ،

« فطرت ووصلت إلى هنا فى ثلاثة أيام »

وكان لخورشيد باك أخ ضعيف العقل ، فلما سمع الغناء جرد خنجره وقال : إنك تكذب ، كيف تصل من « خالاف » إلى هنا فى ثلاثة أيام ؟

— ولماذا تريد قتلى ؟ إن المغنين يجمعون كل ما فى المعمورة بمكان واحد ، ولم أطلب منك أن تصدق ما أقول .

فقال خورشيد : دعه يكمل غناءه . فأنشد أشيك .

« أديت صلاة الصبح فى وادى ارزنجان ،

« وصلاة الظهر فى أرضروم ،

« وصلاة العصر فى كارز ،

« والمغرب والعشاء فى تفليس ،

« فقد وهبنى الله أجنحة وبها طرت إلى هنا ،

« عسى الله أن يجعلنى قريباً للحصان الأبيض ،

« فقد كان يسرح فى ركضه كأنه راقص على الحبل ،

« وكان يقفز من أعلى الجبال إلى المنخفضات ومن المنخفضات إلى الجبال »

« إن الاله وهب أشيك أجنحة بها يطير إلى هنا فى وقت سترف فيه ماجول مجيرى » .

* * *

عرفت الفتاة صوت حبيبها فألقت السم والخنجر :فتعانقا وصديقاتها وهمسن لبعضهن قائلات: لقد عزمت أن تكون زوجة لخورشيد باك.

فسمعت ماجول كلامهن فقالت : إنكن لم تعرفن أعز الأصوات لدى ، ولكنى عرفته ؛ وأخذت مقصاً مزقت به الستر ، ولما رأت حبيبها أشيك صاحت وألقت بنفسها فى أحضانه

وطوقت عنقه بذراعيها ، ونسى كل من الحبيبين نفسه ، فلما رأى أخو خورشيد بك ذلك المنظر أخرج خنجره وأراد الفتك بهما ، ولكن خورشيد بك منعه وقال .

ـ هدىء نفسك واعرف أن المرء لا يفلت مما كتب له منذ ولادته، وما كتب على الجبين لابد أن تراه العين .

ولما استعادت الفتاة شعورها أحست بخزى مما أتت، فغطت وجهها الجميل بيديها واختفت وراء الستار . ونظر خورشيد بك إلى غريمه وقال : لقد تبينت أنك أشيك كريب حقاً ، ولكن خبرنا كيف وصلت إلى هنا فى ذلك الزمن الوجيز ؟

ـ لأثبت لكم صدق قولى أقدم لكم سيفى هذا وهو حاد جداً ، فإن كنت كاذباً فدونكم رقبتى ، ولكن يستحسن أن تحضروا امرأة فقدت بصرها منذ سبع سنين فسأعيد لها بصرها.

وكانت أخت أشيك على مقربة من الباب تسمع كلامهم فأسرعت إلى أمها تقول : أماه ! إنه أخى ... لقد كان ولدك أشيك كريب . وقادت أمها إلى حفلة العرس ، فأخذ أشيك كريب قطعة الأرض وأذابها بالماء ولطخ بها عينى أمه ، وهو يقول سترون جميعاً مقدار قوة « خضر اليمن » ، وفى الحال شفيت أمه ، فلم يجسر أحد أن يكذب أقواله ، وتنازل له خورشيد بك عن عروسه الجميلة « ماجول مجيرى » . فسر أشيك كريب، وقال له: اسمع ياخورشيد بك ، إننى أقدم لك أجمل العزاء ، ولكن أختى ليست بأقل جمالا من ماجول مجيرى ، ثم إنى صرت غنياً ، وسيكون لأختى حظ من ذهبى وفضتى ، فإن شئت زوجتك منها ، فتكون سعيداً بها ، كما سأكون سعيداً بحبيبتى العزيزة ماجول مجيرى . ؟

المعرفة فى السودان

تطلب « المعرفة » فى السودان من المكتبات الآتية : —

١ —	مكتبة البازار السودانى	بالخرطوم
٢ —	« زكى أفندى جرجس بطليموس	«
٣ —	« النهضة العربية	بأم درمان
٤ —	« البازار السودانى	« «
٥ —	« الميرغنية	بكسلا
٦ —	« البازار السودانى	بعطبره